٧٢ ساعة ترانزيت

لمياء السعيد

كانت تجلس بالجامعة عندما رن هاتفها الجوال برقم دولي لا تعرفه :

- ألو، من معي؟

بادرها بصوته:

- أنا فريد يا حبيبتي، ألا تعرفينني؟

- أهلا حبيبي اشتقت لك.. أين أنت ؟ وما هذا الرقم الغريب ؟

- أنا الآن بالسعودية موفدا من الجامعة لحضور مؤتمر، جئت فجأة بديلا عن زميل لي.

- يا ليت كان هذا المؤتمر بالقاهرة على الأقل كنت التقيتك، فأنا لم أرَك منذ سنتين إلا ثلاثة شهور.

- أتريدين رؤيتي ؟

- وهل هذا سؤال؟ أكيد طبعا أريد رؤيتك.

ضحك وقال:

- إذًا انتظريني غدا سأتصل بك عند وصولي القاهرة.

- أنت تمزح.. أليس كذلك ؟

- ألا تريدين رؤيتي ؟

- لا اصدق أنني سوف أراك أخيرا.. متى ستأتي؟

- سآتي على طائرة مصر للطيران الساعة الثانية عشرة والنصف ظهر غد.

- سأكون بانتظارك بالمطار في الوقت المحدد.

obeikan.com

- لا تتعبي نفسك، عندما أصل سأتصل بك.
- مستحيل.. سأنتظرك.

***

مرت الدقائق كأنها ساعات.. لا تصدق أنها ستراه حقا.. بعد عدة ساعات كان قلبها ينتفض فرحا وشوقا .. لم تأكل ولم تنم ليلتها.. تعد الدقائق.. تنظر إلي الساعة كل دقيقة على أمل أن يأتي الوقت.. ارتدت أحلى فساتينها ونزلت قبل أن تقلع الطائرة من السعودية بساعتين.. أوقفت «تاكسي» متعجلة قالت له: المطار لو سمحت.

ركبت السيارة يطير قلبها من الفرحة اتصلت به :

- أين أنت الآن يا فريد؟
- أنا بالطريق إلى المطار.
- وأنا كذلك.
- ما زال الوقت باكرا.
- لا، بالعكس، تأخرت كثيرا..

عبرت السيارة الشوارع والأحياء وسائق التاكسي يتحين الفرصة للكلام معها، لكنها لا تسمعه ولا تنتبه له.. عندما يلح طالبا الرد تومئ له برأسها قليلا فقط وتعود لعالمها الخاص، لا تصدق.. تتذكر يوم سفره والدموع التي انهمرت رغما عنها.. كانت تشعر أنه فراق وليس مجرد سفر وعودة.

وصلت إلى المطار.. جرت إلى البوابة تسأل الضابط:

- هنا ستصل طائرة السعودية ؟
- نعم، آخر الممر يمين عند المقهى.

ذهبت إلى هناك، جلست لم تحرك عينيها من على الباب مع أنها تعلم أن طائرته لم تقلع بعدُ من السعودية.

وجدت الناس حولها.. كانت هناك طائرة قادمة من أمريكا والناس يستقبلون أحبتهم بالورود والدموع والقبلات، وهي تفكر: كيف سألقاه؟

لم أشترِ ورودا.. تعجلت ونسيت كل شيء.. مر الوقت طويلا وهي تنظر لذلك الباب.. تنظر لكل الناس على أمل لقياه.. تفكر: هل من الممكن أن يأتي ولا أعرفه؟ مرت سنتان، هل ستختلط عليَّ ملامحه؟

دقت ساعتها الثانية عشر والنصف.. تنتظر أن يذاع خبر وصول الطائرة بلا جدوى.. انتظرت عشر دقائق وعيناها معلقتان بين ساعة يدها وساعة هاتفها وساعة المطار.

ذهبت لموظف الاستعلامات، سألته:

- ألم تأتِ طائرة السعودية؟
- لا، لقد حطت منذ عشر دقائق، ولكن لم يُذَع عنها بعدُ.
- من أين سيخرجون؟ ومتى؟
- أقصى تقدير ساعة ومن ذلك الباب.

رجعت لمكانها تنظر إلى ذلك الباب وكأنه نافذتها للحياة.

تيبست رقبتها من قلة الحركة، حركتها لأعلى وعندما أخفضتها وجدته أمامها.. لم تصدق.. جرت إليه سلمت عليه:

- فريد، هذا أنت حقا هنا بالقاهرة؟
- نعم.. ألا تصدقين؟
- أنا لا أصدق أنني أتيت.
- لم يكن السفر في بالي، فجأة وجدت نفسي بالسعودية وقررت أن آتي للقاهرة لرؤيتك ولكني سأسافر بعد ٧٢ ساعة.
- أنت تمزح!
- للأسف لا، لا أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك.

أحست أن كيانها قد زُلزل.. اقتربت من الكرسي، تحسست مكانها وجلست غير مصدقة مصدومة:

- بعد انتظار عامين تأتي ٧٢ ساعة فقط؟!
- لقد أتيت لأراك ولم أكن قد خططت للسفر أو المجيء الآن، لكن

لم أستطع تفويت الفرصة.

- ابقَ بعض الوقت، اجلس أسبوعين ثم سافر.

- مستحيل، أنا مرتبط بالمؤتمر وبتذكرة عودتي من السعودية، سأسافر من هنا الثلاثاء ومن السعودية الخميس صباحا عائدا إلى الجزائر.

لم تستطع الوقوف.. طلبت منه أن تبقى قليلا ثم يغادرا. جلس بجانبها:

- أعدك أنني سأعود قريبا جدا.. لقد أتيت من أجل أن أرى وجهك فقط وابتسامتك، فلا تحرميني منها فأنا مسافر منذ أسبوع أتنقل بين الدول لأجلك أنت فقط.

- المرة الأخيرة حين سافرت قلت ستعود بعد ستة أشهر وعدت اليوم بعد عامين.

- أعدك برحمة أمي سأعود أقرب مما تتوقعين.. هيا بنا الآن.

خرجا معا من المطار، استوقفا «تاكسي»:

- إلى فندق شيبرد لو سمحت.

جلسا في التاكسي يتحدثان عمّا حدث من وقت فراقهما وإن كانا لم يفترقا يوما بقلبيهما، لكن كان فراقا بالجسد فقط، كانا يتراسلان كل يوم رسالتين إحداهما منه والأخرى منها، يعرفان أدق تفاصيل أيامهما: أفراحهما، أحزانهما.. كل شيء تشاركاه بالرسائل النصية.

هو تقدم في عمله وهي تحضر الماجستير بالجامعة وتكتب الروايات، وكل رواية هو أحد أبطالها.. نظر بعينيها:

- لم أكن أتوقع عندما التقيتك للمرة الأولي بالجامعة أنني سأُغرم بك إلى هذه الدرجة وأننا سوف نبقى معا كل هذه السنوات، حتى عندما سافرت قلت لنفسي مستحيل أن تنتظرني كل هذا الوقت.

- ولا أنا عندما رأيتك أشفقت عليك من الوحدة والغربة، وكنت أساعدك كأخ لي، لم أتخيل يوما أنني سأحبك كل هذا الحب..

قاطعهما سائق التاكسي:

- وصلنا يا بيه.

نزلا من السيارة.. سجل دخوله للفندق.. انتظرته في الهول غير مصدقة أنها تنتظره وأنه سيعود بعد دقائق، جاء مسرعا.. نزلا من الفندق.. مشيا في كل شوارع وسط البلد، دخلا مطعمهما المعتاد.. جاء النادل مرحبا.. لقد تذكرهما:

- لم تأتي منذ الكثير من الوقت.
- لن آتي إلى هنا وحيدة أبدا.

مرت الساعات بينهما أحاديث لا تنتهي.. دق هاتفها.. نظرت إليه قالت له إنها ماما.. ردت عليها، فاجأتها أمها أن الساعة تجاوزت العاشرة. قال: مستحيل. نظرا إلى الساعة وجداها العاشرة والربع.. خرجا معا.. أركبها «تاكسي» لتعود لمنزلها فقد تأخر الوقت فعلا.

نامت ليلتها والابتسامة لم تفارق وجهها.. استيقظت باكرا.. ارتدت ملابسها ونزلت من بيتها جريا إليه كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة بعد، والجو ممطرا جدا.. وصلت إلى الفندق طلبت منهم إيقاظه، رد عليها بالهاتف: أنا مستيقظ أنتظرك من أمس، لم أستطع النوم.. تناولا إفطارهما معا وقال لها لنذهب إلى «الأمريكين» بتلك الزاوية التي اعتدنا على الجلوس فيها منذ التقينا.. ذهبا إلى هناك، جلسا في نفس المكان قالت له: الحمد لله لم نجد أحدا يجلس في مكاننا المفضل.

جلسا يتكلمان بالساعات، تحكي له ماذا فعلت يوما بيوم وهو يحكي لها كم كانت الأيام لا تمر من دونها.. حكيا عن إنجازاتهما وإخفاقاتهما وعن أهلهما وأصدقائهما، فقد كانا يعرفان كل شيء عن بعضهما البعض وقال لها إن صديقته نادية تزوجت، وهو ليس سعيدا بتلك الزيجة.

- لماذا؟ أليس رجلا طيبا؟
- بلى هو رجل طيب، لكن مستواه التعليمي ليس جيدا.
- أقل منها تعليما ليست مشكلة، نادية أستاذة جامعية، ومن

الممكن ألا تجد أستاذا يناسبها.

- إنه حتى ليس جامعيا ولكن مؤهل متوسط.

تعجبت:

- إن الحب يفعل كل شيء، وليس التعليم كل ما بالحياة.

- لم تحبه.

نظرت إليه:

- إذًا لِمَ تزوجته من الأساس؟

- إنه خوفها من مرور العمر والوحدة فقط، فأنت تعرفين أن نادية قاربت على الأربعين من عمرها، ومع التقدم بالعمر ترضى المرأة بأي شيء، المهم أن تتزوج.

نظرت إليه غاضبة:

- إذًا أنت تقيم الرجل بعلمه وتقيم المرأة بعمرها إذًا انتظاري لك يعتبر إهدارا لعمري؟

- لا تقولي ذلك، فنحن مرتبطان أساسا.

- لكننا لسنا متزوجين، ومن الممكن لأي سبب ألا نتزوج وأكون أنا في نظر الغير عانسا تقبل بأي شخص؟

- اهدئي، لا يمكن ألا يتم زواجنا مهما حدث، فأنا أعشقك.

- لكنك تسافر وتقول شهورا وتغيب أعواما، أليس كذلك؟

- يا حبيبتي، يا ليتنا لم نتكلم عن نادية لكي لا تغضبي.. أنا آسف، لكني إلى جوارك ولن أتركك يوما وأنتِ ما زلت صغيرة جدًّا لتفكري بذلك.

قامت وقالت له:

- سأمشي الآن، أريد الرجوع للمنزل الآن لو سمحت.

- أمرك.

سبقته إلى الخارج.. كانت غاضبة جدًّا لا ترى الطريق أمامها ولم تكن تعرف أحقا هي غاضبة من كلماته أم غاضبة من فراقه وزيارته السريعة جدا،

obeikan.com

فقد كان أملها أنه بعد كل هذا الغياب يأتي لإتمام زواجهما وألا يكون هناك انتظار آخر.

لحقها وقد كانت الدموع تسابق بعضها البعض للخروج.. أمسك يدها وقال لها:

- سافرت نصف العالم لأرى وجهك مبتسما وليس دامعا، أرجوكِ لا تبكي من فضلك.

- أنت ستسافر وسيمضي العمر بي وحيدة، فأنا لا أحيا إلا في إجازاتك والآن ستسافر مرة أخرى والله وحده يعلم كم من السنوات سأنتظر رجوعك مرة أخرى، وهل سترجع مثل الآن «ترانزيت» كذلك؟

- مستحيل، المرة المقبلة ستكون قريبا، ولن أسافر بعدها من دونك، أرجوك لا تبكي ولا تذهبي لمنزلك الآن، فالوقت يمر بنا ولا أستطيع تحمله من دونك.. أنا جئت مصر من أجلك فقط وأعلم أنني جائر عليك، لكن غصبا عني، صدقيني، وسينتهي هذا الوضع قريبا جدا.. مسح دموعها وقال: من أكون أنا لأجعل هاتين العينين تبكيان من أجلي؟

- أنت كل ما أحلم به.

مشيا معا. ركبا «تاكسي» إلى شارع جامعة الدول العربية، كان يريد شراء أشياء.. نزلا أول الشارع أخذتهما الكلمات والأحاديث حتى وصلا لآخره.. لم يشعرا بالوقت ولا المسافة، مع أن الجو كان باردا والسماء تمطر ونسيا ما جاءا لشرائه.. نظرا إلى بعضهما البعض وانفجرا بالضحك.. لقد نسينا ما جئنا من أجله فعلا.

رجعا ثانية.. اشترى كتبا واشترى لها ورودا ورجعا إلى الفندق.. جلست تنتظره حتى صعد إلى غرفته، وضع كتبه ونزل سريعا.

جلسا بمحل «الأمريكين» في ناصية شارع ٢٦ يوليو.. إنه مكانهما المفضل يجلسان بالزاوية والناس تمر أمامهما يريانهم من الزجاج كأنه نافذة على العالم، لكنهما بعالمهما الخاص يتكلمان ويتذكران أجمل ما مر بهما من أيام

obeikan.com

حياتهما في هذا المكان وهذا الشارع بالتحديد.

ولكن ها هو سلاح الوقت يقطع عليهما أحلامهما، فقد حان وقت رحيلها إلى المنزل ثانية.

هذه المرة كانت لا تريد الرحيل ولا هو، فكلاهما يشعر أن ساعات الليل تلك فراق وتمر سوداء مثل لون الليل، طويلة باردة.

ذهبت إلى منزلها تحمل الورود، وضعتها بجوار سريرها تنظر إليها حتى الصباح ترى فيها نور الصباح بكل معانيه..

اتصل بها:

- أما زلت مستيقظة؟
- نعم لم أستطع النوم.
- ولا أنا.

امتدت بهما الكلمات حتى وصلت إلى خيوط الصباح.

- أريدك أن تأتي لتفطري معي.. سأنتظرك.. لن أفطر من دونك.
- أنت لا تطلب، أنت تأمر فقط.

نامت ساعة واحدة.. وفي تمام السابعة خرجت إليه قالت لها أمها:

- يا بنتي لِمَ لا تأتيان اليوم للغداء معنا؟
- سأعرض على فريد ذلك وسأرد عليك.. حاضر.

وصلت إليه.. كان ينتظرها بابتسامته التي خطفت قلبها منذ أن قابلته أول مرة، قالت له:

- أمي تريدنا أن نتغدى بالبيت اليوم.
- ولِمَ لا؟ أنا مشتاق إليها أيضا ومستحيل أن آتي وأسافر من دون أن أراها.

اشتريا معا الكتب وجلسا يتحدثان كعادتهما من دون أن يكون للوقت أهمية.. أفاقت على هاتفها يرن، أمها تتعجلهما، قالت له:

- سنضرب اليوم، هيا بنا.

obeikan.com

جريا معا واستقلا «تاكسي» لبيتها تحتضن يده بين يديها وتنظر في عينيه حتى وصلا لبيتها قابلتهما أمها وإخوتها بالترحاب أكلوا معا وأخذتهم الأحاديث والسمر حتى انتصف الليل، أوصله أخوه حتى الفندق وأخذا يتحدثان بالهاتف حتى ناما والهاتف مفتوح بينهما.

أصبح الصباح.. نظرت في ساعتها، وجدتها العاشرة، همت واقفة تلوم نفسها وارتدت ملابسها ونزلت مسرعه اتصلت به قال لها:

- لم أريد أن أوقظك.. لقد تعبتِ معي الأيام الماضية.

قالت له والغضب يرتسم على وجهها:

- أكنت تريد السفر دون أن أراك؟

ضحك وقال لها: مستحيل طبعا.. أنا أنتظرك بمكاننا المعهود.

وصلت إليه وجدته شارد الذهن وأمامه فنجان قهوة كأنه نسيه:

- لقد بردت قهوتك، تأخرت عليك أليس كذلك؟

نظر إليها رأت دموعه تسابق بعضها للخروج لكن تمنعها كبرياء الرجل.

- ما بك؟

- لا أصدق أنني سأتركك بعد بضع ساعات.

أمسكت بيده ونزلت دموعها سريعا تحرق وجهها:

- ابقَ معي.

نظر إليها:

- أتمنى ذلك، لكنه مستحيل أنت تعلمين.

لم تجد كلمات واستمر بينهما الصمت دقائق كأنها عمر بأكمله.. أذّن الظهر.. قال لها:

- سأصلي وأذهب إلى المطار.

- هيا بنا.

- لا، لن أحتمل فراقك هناك، سأذهب وحدي.

- مستحيل.

openkan.com

قبّل يدها وقال لها:

- أرجوك أنا أتوسل إليك لن أحتمل فراقك بالمطار، سأتركك الآن.. سلمي عليَّ.

سلمت عليه وهي تحبس دموعها وأنفاسها:

- سأنتظرك فلا تطِل الغياب.
- أنتِ تسكنين قلبي وأنا مشتاق لكِ منذ الآن.

خرج مسرعا بخطوات مرتجفة وهي تراقبه عبر الزجاج حتى اختفى بين الناس وجلست هي وحيدة تنظر إلى الشارع لعله يعود وحتى إن لم يعد اليوم، فيوما سيرجع وسأظل أنتظرك يا حبيب العمر.

obeikan.com